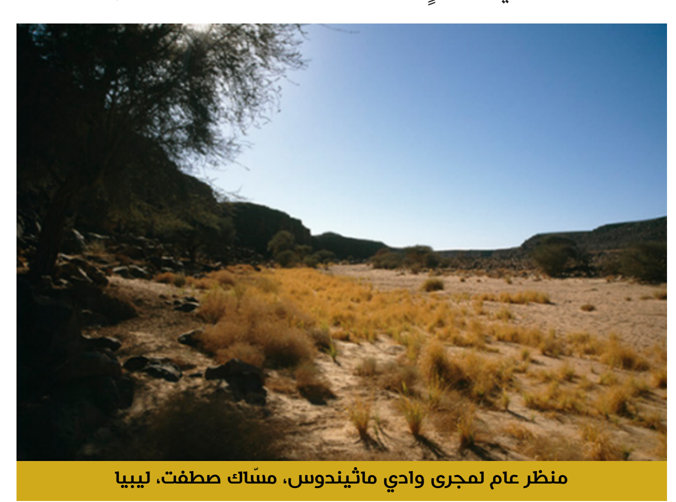
القطّان المتقاتلان

منشورات المتحف البريطاني – ترجمة أنس ابو ميس

بامتدادها من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي، فإنّ الصحراء الكبرى هي الأكبر في العالم دون منازع، تغطي أكثر من 3،500،000 ميل مربع (9،00،000 كيلومتر مربع)، وهو عشر القارة الأفريقية كلها، ولكننا نعرف أنها لم تكن دائماً كذلك، تُظهر لنا البحوث الأثرية والجيولوجية أن الصحراء الكبرى مرت بتغيرات مناخية عظمى منذ نهاية العصر الجليدي (حوالي 10،000ق،م)، خلال هذه الفترة، كان المطر أوفر بكثير، ومساحات واسعة من الصحراء الحالية كانت سافانا، مع حوالي 4،200 ق،م، أدّت تغيرات في كمية المطر والأنماط الفصليّة إلى تصحر تدريجي للصحراء الكبرى إلى رقعة قاحلة، إن تحليل المواقع الأثرية، وعظام الحيوانات، وبقايا نباتية محفوظة، ينبّئنا عن عالم أكثر اخضراراً، حيث جرت أقدم محاولات استئناس الحيوانات والزراعة البدائية.

لا يُعرف إلا القليل عن الناس الذين عاشوا في الصحراء الكبرى قبل آلاف السنين، ولكن – عبر الفنون الصخرية – يمكننا فهم من ربّما كانوا وما الصور التي كانت مهمة لهم، عبر الصحراء، تعرض الفنون الصخرية المنقوشة والمرسومة قصة أقدم للصحراء الكبرى: الحيوانات البرية التي عاشات هنا، وقطعان الماشية التي وفرت الغذاء والمجهود البدنيّ، والنشاطات اليومية والمعتقدات كلها معروضة في كهوفٍ، ومنحدرات، ووديان، وهضاب.



منظر عام لمجرى وادي ماثيندوس، مسّاك صطفت، ليبيا

مسّاك صطفت هو أحد هذه الأماكن، يقع في الصحراء الكبرى، وهو أكبر هضبة تمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي عبر إقليم فزّان الليبي، قرب حدود الجزائر والنيجر، كلتا الهضبتين تخترقها وديان (مجاري أنهار جافة) عديدة، تجري إلى الشرق، تحيط بها منحدرات مملوءة بعشرات آلاف اللوحات الفنية الصخرية، من ضمنها بعض أقدم النقوش في الصحراء الكبرى، بغناها برسومات للسافانا، تظهر الفنون الصخرية جواميس، أو تماسيح، أو نعامات، أو أفراس نهر، وكل ذلك يخبرنا بصحراء كبرى أكثر مطراً قبل آلاف السنين.

من الصعب تحديد دوافع الناس الذين صنعوا مثل هذه الصور، هناك نظريات كثيرة لتفسير لماذا صنع هؤلاء الناس فنوناً صخرية، وماهيّة الرسومات، وما الذي عنته الصور لتلك المجموعة، هناك جانب يختصّ باهتمام بحثي وهو تصوير الكائنات الأسطورية، صور هجينة (نصف إنسان ونصف حيوان)، وحيوانات مجسّمة (تمثيل حيوانات في صورة بشرية)، هل كانت هذه صوراً دينية؟ تراثاً شعبياً ثقافياً؟ أو ببساطة صوراً محببة لمجموعة ما أو ثقافة ما؟



مشهد أماميّ لرسم القطيْن المتقاتليْن
وادي ماثيندوس، مسّاك صطفت، ليبيا

في عمق مسّاك صطفت، يقبع الموقع الذي جذب الباحثين لعقود: الصورة المعروفة بـ «القطّيْن المتقاتليْن»، هذا النقش المميز يظهر جسمين متجابهيْن، بذيلين طويلين، يقفان على عجيزتيهما، بسيقان وأذرع ممتدة جزئياً نحو بعضيهما، كأنهما يتقاتلان، النقوش موضوعة على بروز صخريّ، كأنهما ينظران عبر بقية الوادي، مع عدة نقوش أخرى تعمل كمعالم تقود إليهما، إنهما في وضعية مهيبة مشرفة على الوادي.

إن الجودة الفنيّة للنقوش استثنائية، مع أجسام محدّدة بعمق ومصقولة بعناية، ودوائر محفورة لتمثل العيون، لقد حُدِّدت المخالب أيضاً، ربما لتعزيز فكرة القتال، إن النوع المحدد للحيوان المصوّر هو محلّ جدل بين الباحثين، البعض يصفهما بأنهما قردان أو مزيج أسطوريّ من قردة ورجال، آذانهما الناتئة يمكن أيضاً تمييزها كأشكال تشبه القطط، مع أنها كانت على الأرجح تمثيلاً لكائنات أسطورية، باعتبار علوّها على كافة الصور الأخرى



منحدرات من الحجر الرملي، تُظهر بصورة غير واضحة رسم القطين المتقاتليْن بالأعلى، وادي ماثيندوس، مسّاك صطفت، ليبيا



مشهد عام لرسم القطّين المتقاتلين كما يظهر بين النقوش المجاورة، وادي ماثيندوس، مسّاك صطفت، ليبيا

في هـذه المنطقـة، هنـاك خـطّ مصقـول يـأتي مـن خـصر كل مـن الشـكليْن لينضمّ لأربـع نعامـات صغيرة، مصوّرة بينهـما، والتـي عـادة مـا تصاحـب الفنـون الصخريـة في المنطقـة.

توجد عـدة نقـوش أخـرى عبر الـوادي، في جزئـه الأسـفل إلى اليمـين، هنـاك تصويـر لجسـم شـبيه بالقـط أو القـرد، وإن كان في هـذه الحالـة مخطّطـاً فقـط، هنـاك جسـم رباعـي الأرجـل، صغـير غـير متعـرّف عليـه، مصـور عـلى يسـار رأسـه، عـلى الجانـب الأيمـن مـن الصخـرة، يُعـرض جسـمٌ رابـع، يـكاد يكـون مطابقـاً لتلـك التـي في المشـهد الرئيـسي، لكـن جـزءاً مـن ذراعيـه غـير مصقـول، كـما لـو أنـه تُـرِك قبـل الانتهـاء منـه.

بجانـب موقعهـا المبهـر في المشـهد، ومـدى تعبيرهـا وتفسـيرها المعقـد، تحتفـظ لوحـة القطـين المتقاتليْن بـسرّ، في الجسـم المصقـول للشـكل عـلى اليسـار، هنـاك شـكل صغـير دقيـق لامـرأة، منقـوشٌ سـطحياً، رُسـم الشـعـر، والأصابـع، والصـدر بعنايـة، بالإضافـة إلى رمـز غـير معـروف في أسـفل الجسـم، والـذي قـد يكـون ذا معنـىً متعلّـق بالخصوبـة، إن الفـرق في الأسـلوب والتقنيـة قـد يشـير إلى أن المـرأة أضيفـت لاحقـا للوحـة، بالاسـتفادة مـن السـطح المصقـول، ولكـن باحـترام المشـهد الرئيـس.



معالم نقش لامرأة داخل القطة إلى اليمين، وادي ماثيندوس مسّاك صطفت، ليبيا

نموذج آخـر للقطـط المتقاتلـة وُجـد قريبـاً، بالرغـم مـن أنـه لم يصنـع بـذات العنايـة، ولم يكـن في ذات المـكان البـارز، لكـن الشـبه مدهـش، وقـد نتسـاءل مـا إذا كان الـزوج الثـاني مـن الكائنـات هـو نسـخة مـن الـزوج الأول، مـما يعكـس أهميتـه الرمزيـة في مخيـال النـاس الجمعيّ.

كـما هـو الحـال غالبـاً مـع الفـن الصخـريّ، فـإن تفسـير هـذه الصـور يبقـى محـلّ نقـاش، أخـذاً في الاعتبـار العنايـة في نقـش هـذه الصـور، وجودتهـا التقنيـة، وموضعهـا المهيمـن عـلى المشـهد، يمكننـا فهـم أن هـذه الصـور لربمـا احتـوت عـلى معنـىً عميـق للنـاس الذيـن صنعوهـا قبـل آلاف السـنين، وربمـا جُعلـت كمعلـم رمـزيّ وملمـوس للمسـافرين والسـكان المحليـين عـلى حـدّ سـواء، مـع أن الغـرض والمعنـى الأصليّـين قـد ضاعـا مـن زمـن بعيـد، فـإن القـوة التعبيريـة للنقـوش باقيـة، مـا يسـمح لنـا باكتسـاب لمحـة إلى عـالم النـاس الذيـن عاشـوا في الصحـراء الكـبرى قبـل آلاف السـنين، عندمـا كانـت سـافانا خـضراء ممتـدّة.

الزوج الثاني من القطط المتقاتلة، وادي ماثيندوس، مسّاك صطفت، ليبيا

